

ملوك وشخصيات مسيحية بالمغرب

منذ ان انظم المغرب تحت لواء الاسلام انقطعت كل صلة بينه وبين
الاسم المسيحية التي تلمس لثوبها اذ ذلك من الشمال الاطريقي والاندلس عقب
الانصارات الاسلامية المتتالية.

وكان فيام دولة المرابطين بالمغرب وما صحبها من استتجاد ملوك
الطوائف بالامراء اللثوميين عملا من العواقل التي ساعدت على فتح الباب
من جديد لهذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين لسي مختلف المباديس،
وانتقد هذا الاتصال صورا واشكالا تغيرت بتغير الظروف وتغلب السدود،
وترك هذا الاتصال بعض الاثر في حياة المغرب العربية والمسيحية
والاجتماعية.

والباحث في هذا الموضوع لا يكد يفر في المصادر العربية على ما
يشفي القلب، وكل ما يبسه اشارات عابرة هيمنة لا تكفي لاعطاء صورة
واضحة عن مدى هذا الاتصال، او عن بعض صوره واشكاله.

ويمكن ذلك نجد المصادر الاوربية غنية بالمعلومات، طالحة بالوثائق
التي تزيج البشار عن هذا الجانب الحي من تاريخنا الوطني، لغة احتفظت
لنا باسماء طائفة من الاشخاص ومدتنا بمعلومات غزيرة نجدها في تقارير السفراء
والقناصل وتاليف الكتاب والرحالة بل حتى في مذكرات الرهبان والامري
ورسائلهم الشخصية، وما كتب حول ذلك في فترة كان الصراع فيها على
اشده بين الاسلام والمسيحية ببلاد الاندلس.

وقد جمع يدوكا مستري في مجموعته «مصادر التاريخ المغربي» عددا
والفرا من هذه الوثائق اعتمدنا عليها في هذه المحاولة، والمكثرة العامة التي
تتجلى عند دراسة هذه الوثائق هي ان العلاقات المختلفة بين ملوك المغرب
وبين هؤلاء المسيحيين كانت تنسم بروح من التسامح شاملة من ابرر
مميزاتها من جهة ان الملوك كانوا يتخذون زوجانهم من رقيق النصراني
حتى يصبح لهم فيما بعد نفوذ في اختيار اولياء العهد ومن جهة اخرى
فقد كان الاسارى المسيحيون بالمغرب وفي البلاد الاسلامية قاطبة
يتسمون بحرية في الدين وتسامح في المعاملة ومساواة في الحقوق لمن
اعنشق الاسلام منهم في الوقت الذي كان الاسارى المسلمون بالبلاد

التصيرية (5) ولعل نفس الأسباب هي التي جعلت اميرا لسياليا هو ابن اخنث الغوتس الى الالتجاء الى الموحدين فقدم الى المغرب واظهر الاسلام وتسمى جابى ذكرى به يحيى بن قزاق واستوطن مكناس وبني بها جماعة شيعيا وقد جيش الموحدين وتزى بزعمهم (6).

وكان من اثر هذا الاتصال بين المغاربة والمسيحيين ان كثرت اسواق الرقيق في كبريات المدن واستمر المصري بالجوزى المغليبات وامتلك قصور الملوك وكبار المولفين بالمسيحيات اعتنق الاسلام البعض منهم وكان لهم مقام هرموق عند بعض الملوك.

وازدادت العلاقات الودية بين ملوك بني مرين وامراء الاحيان فشهدنا السلطان يعقوب المنصور المريني يتجد طالية الاسبان هرالدو ويقدم له اعانة مالية (7).

ولم يخل جيش المرينيين من دولة الجنود المسيحيين فقد كانت لهم كنيسة بنواها الكاهن شريد الفرجي الذي ساعد اهل فاس على التسوية ضد الامير ابي بكر المريني ونصب نفسه حاكما على المدينة (8) وفي نفس الوقت كان الامير المريني يعرض المريني يستجده بسك لراغون فيرسل اليه هذا الاخير كنيسة مسيحية ساعده في حصار سبتة بقيادة مسحي يدعى كنزاليس اصبح فيما بعد يدعى بالقائد كنزالا.

ولا اقل على روح التسامح المتأخذ في ذلك العصر بين هاته الطوائف المسيحية وبين مختلف السكان من ان هذه الكتابات المسيحية كان لها اعينها وتسيبها وكانت تباشر لمعارفها الدينية في كتاباتها الخاصة (9).

وقد قدر ملوك المغرب ما تستمتع به هذه الكتابات من نظام دقيق في حوض الملوك فاهفقوا عليها الامطاعات والامتيازات واتخذوا من رجالها حرسا خاصا تمتع بتقنتهم . والى ذلك يفسر ابن خلدون بقوله : (10)

(5) نهاية الابدلس لمانان.

(6) الروضى الهتون في اخبار مكناسة الزيتون.

(7) الاستقصا

(8) المصدر السابق.

(9) من مقال لاورخ البيانى نشر بمجلة المعرفة عدد 4

(10) مقدمة ابن خلدون.

• صار ملوك المغرب يتدخلون طائفة من الفراع فى جنسهم لان قتال اهل وطنهم كنه بالكر والفر مع ان الملوك فى المغرب انما يفعلون ذلك مع اعم العرب والبربر وقتالهم على الطاعة . واما فى الجبال فلا يستعينون بهم قطرا من صا لا لهم على المسلمين .

وازدادت هذه الطوائف المسيحية كثرة واهمية خلال العصر الوطاسى حيث هاجر من الاندلس الى المغرب عدد كبير من العرب واليهود والمنصرين لامتيازات عوامهم المغرب بهذه الطوائف التى اشتغلت بالصناعة والتجارة واحترمت الجندية وساهمت فى تشييط حركة الفرسة بالسواحل المغربية . ويذكر الراحلة الاوربيون الذين زاروا فاس فى اواخر القرن السادس عشر ان المسيحيين كان لهم حق خاص يسمى «بريش الضمارى» .

ويؤكد المؤرخون الاوربيون ان علاقة الامراء الوطاسيين بالمسيحيين البرتغال كانت ودية وكان جيشهم يضم عدة آلاف من البرتغاليين استخدمهم مرارا فى حروبهم ضد الاتراك .

ولقد اخبر ملوكهم الامير ابا حسون الوطاسى يستنجد بملك اسبانيا شارلكان ويتبعه عبر نبلاته فى النمسا والمانيا حتى توفر بمساعدة مالية اعانه على محاربة الاتراك واسترداد مرشيه (١١) .

ونرى فى عهد الدولة السعدية عددا من هؤلاء المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام وعملوا فى صفوف المسلمين وبكفى ان نعلم ان معركة وادي المخازن الشهيرة كان يقودها رخوان الملح حاجب عبد الملك السعدى . وقد اشتهر هذا القائد بذكائه ونصرة وحسن سياسته وتديبره وازدادت خطوته لدى المتصور فاصند اليه اسمى الوظائف حتى اصبح يلقب بالحاجب الطامع (١٢) .

ويقول اليفرنى ان المنصور الذى كان يختار عددا من هؤلاء الاسارى المسيحيين فيربهم ويخلق عليهم النعم ويمتقي من بينهم من يصلح للمهام فاستخدم منهم فى حاشيته اليانسا محمود والقائد الملح والقائد عمر والقائد يريسي . وكان يتخذ من هؤلاء العلوج قواد الجيش والحراس والامناء وحامل السبوط المزرق والاعلام . ولولا لنا اليفرنى وصفنا لهذا الجيش وانظمته وقواعده وببلاسه وهيئة ضباطه وترتيب صفوفه واستعراضاته فى الظن والاثامة (١٣) .

(١١) تاريخ الدولة السعدية لمؤرخ مجهول .

(١٢) المصدر السابق .

(١٣) زهرة الحادى

وتجد من بين هاته الشخصيات في عهد المنصور مسيحية آخر من اصل برتغالي اعتنق الاسلام فغربه المنصور وعهد اليه بمهمة عسكرية هو «الباشا جودز» الذي قاد الحملة المغربية الى السودان . ومن بين المسيحيين اللاتين الى كنف المنصور مسيحي قدم من جنوة فاعتنق الاسلام وتزوج بيهودية اعتنقت الاسلام ايضا وانجبت له ولدا ادرك شيئا بعدا في النصف من «سبتي رضوان الجنوي» الذي كان يعد من شيوخ الشفور في علم الحديث (14) وتفيدنا الوثائق التي نشرها «دوكاستري» ان خلفاء المنصور كانوا يتناقضون في الحصول على هؤلاء الملوك لاستخدامهم في قيادة الجند وجمع الاسلحة حتى ان المولى زمران السعدي رفض امتلاك بعض الاسارى الهولانديين والانه غير لئيم حاجته اليهم .

أما في عصر الدولة العلوية وبالأخص في عهد «المولى اسماعيل» فقد تكاثرت عدد المسيحيين والعاجل بسبب حركة القرامطة التي ازدهرت اذ ذاك بسلا والرباط واطوان عقب هجرة المرينيين من الاندلس فانضم الي جيش القرامطة عدد من الاوربيين ينتمون الى جنسيات مختلفة والنفرت بينهم حركة اعتناق الاسلام . وتذكر من بينهم الرئيس بيبي قائد امطول سلا وبلامينو وكريبيو وكرامكو وبيفو وجانسن الذي اصبح يدعى فيما بعد بالفرنس موراطو وعهد اليه المولى اسماعيل بقيادة امطول سلا (15) .

ويضاف الى هذه الطوائف المختلفة طائفة اخرى من المسيحيين الذين وقعوا في الاسر خلال غارات القرامطة على السواحل الاوربية وعلى السفن النصرانية في عرض البحر او بعد مشارك التخليص التي قام بها المولى اسماعيل بالشواطئ المغربية المحتلة . ويقتدر المؤرخون الاوربيون الاسارى في عهد اسماعيل العظيم بنحو اربعة آلاف ينتمون الى جنسيات مختلفة وكان يسمح لبعضهم منهم بالزواج مع المسيحيات ويتخذ من اولادهم حراسا للمنصور والشككات .

ويجب ان نشير هنا الى ان هذه الطوائف من الاسارى كانت تضم عددا من النساء تزوج بعضهم الملوك والامراء (16) .

(14) جنوة الاغنياس وسلوة الاندلس .

(15) الطر بيتزي وبرينو وكواندرو في نشاليهم عن حركة القرامطة

(16) في تراجم ملوك المغرب منذ عهد الامير علي بن يوسف

المرابطي امثلة كثيرة لتسرى الملوك بالمسيحيات . وكانت هذه المادة شائعة في دول الاسلام شرقا وغربا منذ ابتداء العصر العباسي

ولم يكن السولي اسماعيل يفرح من طرد المخلاء من السواحل حتى يادر
الى علاج هذه الحالة الناشئة من كثائر الاسارى المسيحيين فلم يتركهم حالة
على الدولة - خصوصا وان حركة ابداء الاسارى وتبادلهم مع السولي الازربية
لم تتخذ اتجاها خامسا - بل فرح استخدامهم فى بناء النصبينات والاسراج
والقصور والاسوار والمآثر المصراية مكناس وغيرها .

بيد اننا لا نلتزم على شخصيات الكنيست من بين الاسارى مطبوعة اسمى
المعامل المفرى باستثناء شخصيتين : فبرالدو البرتغالى الذى كان يشرف
على المنشآت المصراية - ومنصور الملاح الذى اطلق اسمه لبيتا بعد على باب
شهير من ابواب مكناس .

ولا يفوتنا هنا ان نشير الى الاختلافات والبيانات التى تطلق بها بعض
المصادر الازربية المرفوعة عن سوء معاملة السولى اسماعيل للاسارى فندرس
المفروضون هذه الترهات فى بعض كتب التاريخ لشيوخه سيما الملك العظيم
مع ان الوثائق والتقارير الاصلية التى كتب البعض منها الاسارى انفسهم كتبت
بطان هذه الفتوى وتؤكد ان عدد الاسارى الذين وقع اعدائهم قليل ولم يقع
تفقد حكم الاعدام لهم الا نتيجة لخيانة او لجرالم او لغيرها تستوجب ذلك
الحكم الصارم .

ويحضر بنا ان تقدم المقارى وصفنا موجزا لحطة من تلك الحذلات التى
كانت تقام بمناسبة اعتناق الاسير المصيحى للديانة الاسلامية كما وصفها
احد الاسارى (17) .

لعمد ما يبدى الاسير ومحبته فى اعتناق الدين المصحدى يقع اخراجه
من السجن ويولى به الى المسجد الاعظم مسجدة قائد الاسارى وهناك امام
الفاشى والامام وجماعة من رجال الدين تلقن له الشهادة فيرددها سرورا
الى ان يطق بها مسألة ثم تلقن له بعد ذلك قواعد الدين ويخرج الجميع
حيث يتكلم موكب حافل ليمتطي الاسير صهوة جواد عظيم ويلبش بيمته
المرتفعة فوق راسه قضيبا طويلا اشاراة الى التوحيد ويخترق الموكب ازقة
المدينة فى مظاهرة صاخبة تخلط فيها اصوات الرجال والاطفال بقصر
الطبول وترايم المزمار وزغاريد النساء فيصبح المصيح مسئة ذلك الجيـ
فردا عن افراد المسلمين ثم ما لهم وعليه ما عليهم .

ولا تحبذنا المراجع التاريخية شيئا عن حال هذه الطوائف المسيحية
بعد وفاة السولى اسماعيل وقيام الفتنة الكبرى فى عهد ايتانه وطلب على

الذين ان كثيرا من هؤلاء الاساقى فروا من تعقباتهم وقتل عددهم بتوالي السنين .

تلى عهد المولى عبد الله لا لجه ذكرنا لهؤلاء الاساقى ولكن كتب التاريخ تحدثنا عن مغامرات مسيحي يدعى البارون دي ريبيرا الاسباني الاصل . فليسب من الاسباب اعتقل هذا الشخص في بلاد المغرب من السجن وذهب الى هولندا وهناك اعتنى المذهب البروتستانتي وساقته القسوس الى التعرف بالقائد بيريس قائد ملن القراصنة فوجهه الى المغرب وعرض خدمته على السلطان فاعجب بذكائه ونباهته وبلاخض لمعرفته الغربية فاستد اليه احدى الطوائف وامسح يدعى بالعليفة عثمان (18).

وتحدث الفصل تينى في مذكراته عن هذا السفير فبروى الى مسج من بعض المطاربة ان هذا الملح كان يعمل لمصلحة مغامر آخر يعمل على اثناء دولة بكونسيكا تعتمد على صدقة تونس والمغرب ومساعدتهما ويفكر في وضع ديانة جديدة تستمد اصولها من القرآن والانجيل والتوراة . وقضى هذا السفير مدة في خدمة الدولة ولكن شذوه لدى الى طرده فقص بقية حياته شريفا في تطوان .

ومن بين الشخصيات البارزة في هذا العصر شخصية اخرى من اصل الباني استوزره المولى محمد بن عبد الله يدعى السيد العربي الفنى قادوس . وكان هذا الوزير من اشد الناس اتصالا بالملك لمقدرته ودهائه واليه يشير صاحب الجيش المرموم بقوله :-

كان السلطان يفتخر بانتمى تعظيما له لانه من مواليه ومن لنياروا في حجو تربيته وكان شدة من الذكاء والبطنة وركنا شديدا من اركان الدولة السعيدية (19)

واستد السلطان عدة وثائق سامية لغوج آخرين تجد في مخطوئهم القائد ادريس الذى كان يقوم بوظيفته قائد المشور ، واليهتمس كورنو الذى عهد اليه بخطط مدينة الصويرة وبواسطولان رئيس الحرس الملكى وغيرهم زيادة على كنيهة من الجند كلها من اصل اوربي . والى ذلك يشير الفصل تينى بقوله :

(18) مذكرات عن المغرب تأليف فولاد تينير

(19) التعال ج 3 ص 337

«ان هذا السلطان العظيم اترك بمهارته ان يستجلب صداقة دول أوروبا بما كان تحت يديه من الاسارى الذين جلبهم قراصنته أثناء غاراتهم على السواحل الأوروبية. فكانت هذه الدول تسالمة وتسمى في مرضاه (20) ويقول الاب كوادار - الذي كتب تصولا عن المغرب سنة 1860 - ان عدد الاسارى المسيحيين اذ ذاك كان يتراوح بين 300 و 400 وانهم كانوا يعملون في مختلف الحرف والصنائع ومعظمهم كان يعمل في صفوف رجال السفينة في الجيش المغربي .

وسا تجب ملاحظته ان حركة الفرنسة دخلت مرحلتها الاخيرة في بداية عصر المولى عبد الرحمن .

على اننا لا نعدم ان نجد منهم ثرازم خشيلة

ففي عهد المولى عبد الرحمان ثمر على عليج يدعى احمد سلفاوا كان يقود كتيبة من الجيش المغربي في معركة ايسلبي فثار عليه الجند لخيانته وقتلوه خلال المعركة. وتجد مسيحيا آخر يدعى دوسولفي كان ضابطا في الجيش الفرنسي بالجزائر وهاجر الى المغرب فاستوطن العرائش ونصب نفسه عبد الرحمان وهناك انشا مملا للمصابون واشتغل بالتجارة في طنجة وبلغ امره الى السلطان ففروا اليه وعهد اليه بتحصين ارفة فاس . وبعد وفاة السلطان قربه ابنه المولى محمد فزوجه بحاربة الجيت له ولدا اشتغل فيما بعد بدار القنصلية الفرنسية بطنجة (21)

وتمر في صفوف الجيش المسمى على ضابط من اصل انجليزي اسلام وسمى نفسه اسماعيل فزوجه السلطان بحاربة واسكنه بفاس وعهد اليه بمهمة تدريب الجنود بسوس .

وعند ما قدم الضابط الفرنسي ابركان وليس البعثة العسكرية الفرنسية الرئيسية الى فاس في اواخر العهد الحسني لم يجد في الحاشية المغربية سوى بعض الفلوج يعدون على الاصابع منهم البارون دومان الذي كان محاميا فائلا بفرنسا فهاجر الى المغرب واسلم وتماطى مهنة التظليب . ومنهم آخر من اصل بلجيكي كان يشتغل باصلاح الاسلحة والماني حر من

(20) المصدر السابق ص 263

(21) على هذا العليج تلمذ مولاي احمد الصوري رئيس الهندسين في العهد الحسني

جيش النفيع الأجنبي، ويرتفالي كان قنصلا لدولته فاسلم وانخرط في سلك موظفي السجون وكلفه السلطان مرافقة بحثة الطليبة المغاربة الى فرنسا .

وقد كان الضابط الفرنسي ابركمان نفسه من المغربين للسلطان نظرا لخبرته بالقبائل العربية وسعة اطلاعه فبعد اليه السلطان يستألف المهجرات . وانضم في البينة المغربية فاصبح يتكلم العربية ويرتدي الزي المغربي ورافق المولى الحسن في عدد من رحلاته وتنقلاته وكتب هذا الضابط كتابا عن المغرب من اطلع ما كتب عن حالة البلاد في ذلك العصر (22) وعلى سبيل الاستطراد نضيف الى هذه القائمة شخصيتين مسيحييتين قدمتا الى المغرب قصد السياحة والتبشير : اسمائلي يدهي دومينكو باديا الذي لظاهر بالاسلام وسمى نفسه هاني باي العباسي، وطاق باتجاه المغرب واتصل برجال الدولة وسجل معلومات دقيقة فاشته دولته (23) ثم الراهب الفرنسي الشهير دو فوكو الذي طاف المغرب والصحراء متنكرا في زي يهودي وسجل ما جمعه من معلومات في مجلد ضخيم .

ولعل أقرب هذه الشخصيات من شخصية الانجليزي، امالك ليسر الذي كان ضابطا في الجيش البريطاني وعمل في كندا والبريقيا وجبل طارق واستقر اخيرا بطليحة لسبب مقصود وهناك اتصل بالاعوان المغربية وكبار البوطلين الى ان اصبح مدبرا لتجيش المغرب في العهد الحسني وبقي في هذا المنصب 25 سنة وصحب السلطان في معظم رحلاته وكان يتكلم العربية ويرتدي اللباس المغربي وتبكن من مرافقة اعضاء السفارة المغربية الى لندن في اوائل العهد العززي.

ونضيف الى هذا النوع من الشخصيات الاحتمية التي تمتعت بمقام سام في هذا العصر الدكتور بالاديس، الفرنسي الذي كان يتمتع بحقوق كبرى عند المولى الحسن اذ كان طبيب السلطان الخامس ومستشاره في الشؤون المالية وهو الضابط الاجنبي الوحيد الذي رافق المولى الحسن في رحلاته الى تاهيلالت .

(22) المغرب الحديث تأليف ابركمان

(23) قسم الى طبعة سنة 1803 فنجد بالمغرب وطرابلس ومصر

ومكة ووصف كل مشاهداته في حديث مفصل طويل.

ولا ننس أيضا الراتب الامباتي الشهير الأب والبروتسواندي الذي احاطه المولى الحسن بمناينة والسند اليه ترجمة الوثائق السياسية من العربية الى اللغات الالوية وعهد اليه بمرافقة السفارة المغربية الى الفاتيكان سنة 1868 (24)

وثائق مشرفة وذاق وهي مسيحية انجليزية تدعى دمس كين، كانت موظفة في القنصلية الامريكية بطنجة لاعدت الاسلام ونزوحها الحاج عبد السلام الوذاني فاصبح لها نفوذ كبير في وهران وكثرت تأليفها عن المدينة وعادات سكانها .

ونلاحظ ان المغرب عرف في اوائل القرن الحالي فترة من ادق الفترات في تاريخه حيث استعملت مطامع الدول الاجنبية فيه وظهرت بواحد النزاع بين الدول الاستعمارية على اقتسام الاسلام في رقعة الممالك الاسلامية فتفاطرت على المغرب افواج من المسيحيين سعيها في الظاهر ليرضى خدماهم وقانونهم وصناعاتهم بينما كانوا يعملون في الحقيقة لمصلحتهم او لفائدة الدول التي ينتمون اليها . فلم يكن المولى الحسن ينطلق الى رحمة ربه حتى شاعده المغرب جحافل من الاجانب لقد عذبه من كل صوب وتكثر تحت اسماء مختلفة من صحافيين وديپلوماسيين وقناصل وعلماء ومهندسين واطباء وتجار ومغامرين ومشجسين وكان الهدف الذي تسعى اليه كل طائفة هو الحصول على المعلومات المختلفة وكشف السناد عن نفوذ الضعف في جهاز الدولة واعداد العدة للقضاء على استقلال البلاد وفي نفس الوقت الذي كانت فيه الدول الالوية تتنازع على اقتسام المغرب وتنفذ الاوغاقي فيما بينها على كيفية الاقتسام، كانت تخطب ود المغرب وتبعت اليه السفارات والبعثات الديپلوماسية لافادته على اصلاح شؤونه ويقوم ومنها من صحافيين وكتاب باسناد المؤلف والنشرون المفروضة لتثريه سمعة المغرب وليرسر تدخل الالويين في شؤونه ولتحطيم سيادته (25).

(24) الانتحاب ج 3

(25) انظر كتاب الدكتور فير : اسرار المولى عبد العزيز وكتاب «المغرب الذاهب» لهاريس

وبعثن بنا ان نختم المقال بالكلام عن شخص لعله باخر ملج من هؤلاء
الملج لهدر ملج من اصل الماني ولما فرغنا ووصل الى تركيا والافسان
حيث يصنع لزجة طائلة ثم ساج بفرنسا واسبانيا وهاجر الى المغرب بعد
ما يدد كل ماله ويهدع من الباس الخوف في المقيف الاجنبي بالجزائر ثم
فر والتحق بالجيوش الاربغية واعشق الاسلام واعلم العربية وسمى نفسه
الحاج وشارك في عدة معارك الى ان انتهت الحرب فالتى الفرنسيون عليه
البص وحكموا عليه بالاعدام .

الصدیق بن طبری